

بلاغة الدعاء في سورة آل عمران

الدكتور/ صالح بن محمد الزهراني
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي — كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة البحث:

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فهذا البحث بعنوان : " بلاغة الدعاء في سورة آل عمران " أردت به تحلية بلاغة القرآن في عرض الأدعية التي جاءت في هذه السورة العظيمة من القرآن ؛ إذ هي من السور التي ورد في الحديث الأمر بتعلمها ، ووصفها الرسول صلى الله عليه وسلم الله بالزهراء حيث قال : " تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان تظلان صاحبهما يوم القيامة ... " ^(١).

وكان من أسباب الكتابة فيه أنني لم أجد أحداً من الباحثين - في حدود علمي - تناول بلاغة الدعاء في هذه السورة ، يضاف إلى هذا ما ورد من أحاديث تبين فضلها والأدعية التي وردت فيها .

فمن الأحاديث التي وردت في فضلها ما جاء عن النواس بن سمعان قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران " أخرجه مسلم ^(٢) . إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين فضل السورة بعامه ، وآيات الدعاء فيها بخاصة مما سنورده أثناء تحليل الآيات .

(١) انظر: سنن الدارمي : ٩٠٧/٢ ، باب في فضل سورة البقرة وآل عمران ، وانظر: فتح القدير : ١/ ٢٧ .

(٢) انظر: صحيح مسلم : كتاب صلاة المسافرين وقصرها : باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة رقم الحديث : ١٨٧٣ الجزء ٦ : الصفحة ٣٣١

وقد جعلت هذا البحث في تسعة مطالب :

الأول : بلاغة دعاء الراسخين في العلم وهم الذين دعوا ربهم بأن يثبت قلوبهم على الهدى ، وأن يجرسهم من الانحراف بعد معرفة الحق ، وأن يرحمهم في الدنيا والآخرة.

الثاني : بلاغة دعاء العباد الصابرين الصادقين ، وهم الذين أعلنوا إيمانهم برهم طالبين منه سبحانه أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يقيهم عذاب النار ...

الثالث : بلاغة دعاء الثناء الذي أمر الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو ذلك الدعاء الذي تضمن الإعلان والتمجيد والاعتراف بأن الله سبحانه مالك الملك يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأن الخير كله بيده وأنه قدير على كل شيء ، فهو الذي يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، وهو الذي يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، وهو الذي يرزق من يشاء بغير حساب .

الرابع : بلاغة دعاء امرأة عمران وهي تلك المرأة المؤمنة التي دعت ربها ناذرة له ما في بطنها بأن يكون عابداً لله سبحانه ، وخادماً في بيت المقدس ، طالبة منه تعالى أن يتقبل منها ما نذرت فاستجاب الله دعاءها...

الخامس : بلاغة دعاء زكريا عليه السلام الذي طلب من ربه ذرية طيبة فاستجاب الله دعاءه ، ووهب له يحيى ابناً باراً صالحاً ...

السادس : بلاغة دعاء مريم التي طلبت من ربها طمأنة قلبها في حملها بغير الأسباب المعروفة من زواج أو غيره ، فاستجاب الله دعاءها فأعلمها أنه تعالى يخلق ما يشاء ، كيف يشاء ، فإذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فأنطق الله سبحانه ابنها عيسى عليه السلام بحقيقة أمره بعد ولادته .

السابع : بلاغة دعاء الحواريين الذين طلبوا من ربهم بعد إعلان إيمانهم بالله ورسوله أن يكتبهم مع الشاهدين .

الثامن : بلاغة دعاء الربيين الذين طلبوا من ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم في معركتهم مع الأعداء ، وأن ينصرهم على القوم الكافرين ، فاستجاب الله دعاءهم ففازوا بثواب الدنيا والآخرة .

التاسع : بلاغة دعاء أولي الألباب الذين يذكرون ربهم في جميع أحوالهم متأملين في خلق السموات والأرض ، مؤمنين بأن الله لم يخلقهما باطلا ، داعين منزهين ربهم طالبين منه سبحانه أن يقيهم عذاب النار ، معلنين إيمانهم برسوله صلى الله عليه وسلم راجين منه سبحانه غفران ذنوبهم ، وتكفير سيئاتهم ، وموquem مع الأبرار طالبين منه تعالى تحقيق ما وعدهم به على ألسنة رسله . وقد وعدهم سبحانه بالاستجابة مؤكداً لهم أنه لا يضيع عمل العاملين من الرجال والنساء على حد سواء .

أما أساليب الدعاء في السورة فقد جاءت بصيغة الأمر وهو كثير في السورة مثل: هب لنا من لدنك رحمة ، واغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار... وجاء بصيغة النهي مثل: لا ترغ قلوبنا ، ولا تخزننا يوم القيامة .. ويأتي في صيغة الخبر كما في دعاء الثناء كما في قوله تعالى على لسان الراسخين في العلم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وفي قوله تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ .

أما تحليل الآيات المتضمنة تلك الأدعية فقد جعلته يقوم على ثلاث ركائز هي :

- ١- الالتزام بترتيب الآيات في السورة .
 - ٢- بيان سياق الآيات ومعناها العام .
 - ٣- شرح معالمها البلاغية .
- ذلك أن الالتزام بترتيب الآيات مع ذكر سياقها ، وبيان معناها العام أمر مهم لمن يريد فهم بلاغة القرآن ، وهذا ما سيراه القارئ في تحليلنا لآيات الدعاء في هذه السورة ، والله المستعان .

المطلب الأول : بلاغة دعاء المؤمنين والراسخين في العلم :

أول دعاء نطالعه في هذه السورة جاء في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ^٩ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿ [آل عمران: ٨-٩] .

سياق الآيتين ، ومعناها العام :

يرد هذا الدعاء بعد قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧] .

وأحسن ما قيل في الحكم والمتشابه ، أن الحكم ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه دون خلقه ، ولم يكن لأحد إلى علمه سبيل ، مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدجال وعيسى ...^(١)

(١) انظر: تفسير القرطبي ٩/٤ ، ١٠ ، تصحيح هشام سمي البخاري . دار إحياء التراث العربي ، بيروت وصفوة التفاسير ٧/٢ .

وهنا في هذا السياق يرشد الله عباده المؤمنين والراسخين في العلم منهم إلى أن يدعوا ربهم قائلين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ أي : يا متولي أمورنا ، لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمته عليها ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم ميل عن الحق وكالذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم وامنحنا من عندك فيضاً غامراً من رحمتك تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ، فأنت وحدك لا غيرك كثير العطاء واسع الفضل .

وفي إطار هذا الدعاء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قوله : " اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " ^(١) . وكان إذا استيقظ من الليل قال : " لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب " ^(٢) .

ثم يخبر تعالى عن المؤمنين الصادقين ، والراسخين في العلم منهم أنهم يقولون كذلك في دعائهم: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْأَمْعَادَ ﴾ أي : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم ، فيما كانوا فيه يختلفون ، ويرى كل منهم جزاء عمله ، ويظهر ما غاب عن العباد في ذلك اليوم العظيم يوم المعاد إلى رب العالمين ^(٣) .

(١) انظر: مستدرک الحاکم ٤/٤٧٥ ، کتاب الرقاق رقم الحديث ٧٩٠٧ ، ورياض الصالحين ٤١١ .

تأليف : يحيى بن شرف النووي . ط ١٠ . مؤسسة الرسالة .

(٢) انظر: شعب الإيمان ١/٤٧٥ ، باب في الخوف من الله رقم الحديث ٧٥٩ ، وفقه السنة : ٢٠١/١ ،

دار الكتاب العربي . بيروت .

(٣) انظر: تفسير ابن كثير : ٣٤٨/١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١٤٠٣ هـ .

الملاحح البلاغية للدعاء:

يبدأ الدعاء هنا بلفظ " ربنا " دون أن يقال مثلاً " يا ربنا " فيذكر حرف النداء ؛ استشعاراً بقرب المنادى إلى نفوس المؤمنين الذين يوقنون بأن الله معهم ، وقريب منهم.

وإيثار كلمة : "ربنا " ؛ للدلالة على معنى التريبة والرعاية والحفظ ، وهو المعنى المتناسب مع الدعاء الذي يرفعه المؤمنون إلى الله سبحانه وتعالى .
والدعاء بأن لا يزيغ الله القلوب يتناسب مع مضمون قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ ؛ لأن من الكتاب المحكم والمتشابه .

فهذا الدعاء يحمل تحذيراً للأمة من الوقوع في الضلال بسبب التشابه في الكتاب ، ويحمل تحذيراً لها من اتباع البوارق الباطلة مثل ما وقع فيه بعض العرب من الردة والعصيان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم^(١).
والتعبير بضمير الجمع في (ربنا) و (هديتنا) يوحي إلى النفس أن الزيغ المؤثر في سلامة المؤمنين هو زيغ طوائف منهم ، لأن زيغ بعض الأفراد عن الحق محدود التأثير .

وهذا أمر ملاحظ في حالة الأمة فإن الاقتتال بينها و الشقاق لا يحدث إلا إذا وقع الزيغ عن الحق بين جماعاتها .

وصيغة ﴿ تُزِغْ ﴾ أدل على معنى الانحراف عن الحق من نحو "تمل " فالزيغ يحصل بسبب عوارض تعرض للعقل من خلل في ذاته أو دواع من الشهوة واللبس، أو ضعف في الإرادة تميل بالنفس عن الفضائل الكريمة التي كانت تتحلى بها إلى الخصال الرذيلة^(٢).

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير : ١٦٩/٣ .

(٢) السابق ١٧٠/٣ .

والتعبير بـ "القلب" أدل على المعنى المراد في سياق الدعاء هنا من كلمة " الأفتدة" التي جاءت في بعض الآيات .

ولعل الدعاء الذي كان يكثر منه صلى الله عليه وسلم يوضح هذه الدلالة وهو " اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " ^(١) ففي كلمة "القلب" معنى الانقلاب من حال إلى حال .

وصرح المؤمنون الراسخون في العلم في دعائهم بقولهم: ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ۖ ﴾ لأنهم يدركون قيمة الاهتداء بعد الضلال . قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش . قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة . قيمة الطمأنينة بعد الأرجحة . قيمة التحرر من العبودية للعبودية لله وحده . ويدركون أن الله منحهم بالإيمان كل هذا الزاد .

ومن ثم يشفقون من العودة إلى الضلال ، كما يشفق السائر في الدرب المستقيم المنير أن يعود إلى التخبط في المنعرجات المظلمة . ^(٢)

ولذا فإن الحرص على الثبات على الهداية دائماً شعار المؤمنين في صلواتهم ، فهم يدعون ربهم ليلاً ونهاراً ، سراً وإعلاناً بقولهم : ﴿ آهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ؛ لأن ثباتهم على الإسلام والعمل بشرائعه أساس سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وأسند المؤمنون الهدى إلى الله ؛ اعترافاً منهم بكرم الله عليهم ، وإخباراً منهم بأنهم لا يستطيعون أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً ، ولا يدفعوا عنها ضرراً .

(١) انظر: تفسير ابن كثير : ٣٤٨/١ .

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٣٧٠/٣ ، ٣٧١ .

ولهذا قالوا ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ ؛ لأنهم يعرفون بوحى إيمانهم أنهم لا يقدرّون على شيء إلا بفضل الله ورحمته ، وأنهم لا يملكون قلوبهم فهي في يد الله ..

قال رسول الله ﷺ " ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه " (١).

فهم يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء المتضمن طلب الرحمة والعون والنجاة من الضلال (٢). ولذا صرحوا بقولهم : ﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ وجأؤوا به مقدماً على ﴿ رَحْمَةً ﴾ ؛ لأن تيسير أسباب الرحمة كائن بتقدير الله ؛ إذ لو أراد سبحانه لكان الإنسان مُعَرَّضاً لنزول المصائب والشُرور في كل لحظة ، ولكن رحمة الله تحيط به ، لأنها رحمة وسعت كل شيء (٣).

وجاء تنكير ﴿ رَحْمَةً ﴾ في هذا السياق ؛ ليدل على أن مطلوبهم من ربهم رحمة عظيمة واسعة يكون بها سعادتهم في الدنيا والآخرة (٤).

ولبيان حرص المؤمنين على الرحمة الآتية من ربهم جاء تقديم الجار والمجرور في قولهم : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ على المفعول الصريح : ﴿ رَحْمَةً ﴾ . كما أن في هذا التقديم تشويقاً إلى المؤخر ، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده ، لاسيما عند الإشعار بكونه من المنافع التي يحرص الإنسان عليها (٥).

(١) انظر: مستدرک الحاكم ٣٥٧/٤ ، كتاب الرقاق ، رقم الحديث ٧٩٠٧ ، وسنن الترمذي ٥٠٣/٥ ،

كتاب الدعوات ، رقم الحديث ٣٥٢٢ ، وتفسير ابن كثير : ٣٤٨/١

(٢) انظر: في ظلال القرآن : ٣٧١/٣ .

(٣) انظر: تفسير التحرير والتنوير ١٧٠/٣ .

(٤) انظر: فتح القدير ٣١٨/١ .

(٥) انظر: تفسير أبي السعود ٤٤٢/١ .

ورحمة الله من أعظم المنافع التي يسعى الإنسان العاقل إليها .

وفي ختام الآية بقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ لطائف بلاغية منها :

أ - تأكيد مضمون الآية ؛ لأن المؤمنين طلبوا فيها من ربهم مطلبين عظيمين هما ألا يزيغ قلوبهم بعد هدايتها ، وأن يمنحهم من لدنه رحمة واسعة .
ومن كان متصفاً بأنه وحده الوهاب ، فلا ريب عند المؤمنين في تحقيق ما رجوا من الله الوهاب .

وقد برز هذا التأكيد من خلال ﴿ إِنَّكَ ﴾ وضمير الفصل ﴿ أَنْتَ ﴾ وصيغة المبالغة في كلمة ﴿ الْوَهَّابُ ﴾ .

ب - القصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله : ﴿ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ أي أنت وحدك كثير العطاء .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ يأتي دعاء الثناء بعد دعاء الطلب في الآية السابقة .

فأولئك المؤمنون الراسخون في العلم يثنون - هنا - على الله ، فيذكرون أنه القادر على جمع الناس للحساب ، وأنه تعالى لا يخلف ما وعد به عباده .
ولكن ما العلاقة بين دعاء الطلب ودعاء الثناء في هذا الموضع ؟ ولماذا أثنوا على الله بتلك الصفتين ؟

والجواب : أن المؤمنين من العلماء الراسخين استحضروا عند طلب الرحمة أحوج ما يكونون إليها ، وهو يوم تكون الرحمة سبباً للفوز الأبدي ، يوم يجمع

الله الناس للفصل بينهم ، فكأنهم قالوا : وهب لنا من لدنك رحمة ، وخاصة يوم
تجمع الناس ليوم لا ريب فيه ^(١).

أما ذكر العلماء لتلك الصفتين إشارة منهم إلى أن حقائق المتشابه من
القرآن التي يتبعها الذين في قلوبهم زيغ ؛ قصداً للفتنة سوف تنجلي يوم يجمع الله
الناس ليحزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ﴾ جاء دون عاطف ، لأن جملة
﴿ رَبَّنَا ﴾ ندائية كأولى فيبينهما كمال الاتصال .

وفي ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ إيجاز بالحذف ؛ لدلالة
السياق على المحذوف ، والتقدير : ليوم الحساب أو الجزاء ^(٢).

وفي الختام بـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ لطائف بلاغية منها :
أ — الرد على الذين في قلوبهم زيغ ، وهم الذين يشككون في المغيبات التي
لا يعلم تأويلها إلا الله .

ب — التأكيد على وقوع يوم الحشر والجزاء بـ ﴿ إِنَّ ﴾ والإسناد إلى
لفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ ﴾ ، والتعبير بالمضارع ﴿ لَا يُخْلِفُ ﴾ الدال على استمرار
صفة الوفاء بالوعد وتجدها في كل أمر وعد الله به حاضراً ومستقبلاً .

ج — إثارة لفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ ﴾ لتربية المهابة في نفوس السامعين ؛ لما لهذا
الاسم من العظمة في نفوس العباد .

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٧١/٣ .

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٤٤٢/١ .

د — الالتفات من أسلوب الخطاب في ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ إلى أسلوب الغيبة في ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْأَمْعَادَ﴾ ؛ لإبراز كمال التعظيم ، والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهيّب الهائل ، ولتحقيق استقلالية هذه الجملة بمعناها عما سبقها ، إذ تصلح أن يستشهد بها في كل مناسبة تدعو إليها^(١) .

المطلب الثاني : بلاغة دعاء العباد الصابرين والصادقين :

وفي سورة آل عمران نلتقي بنموذج آخر من الدعاء في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفَنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ﴾ الصّابرين وَالصّٰدِقِينَ وَالْقٰنِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿ [آل عمران: ١٦-١٧] .

سياق الآيتين ومعناها العام :

وهذا الدعاء يأتي بعد قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٥] .

فهؤلاء العباد وعدهم تعالى بالثواب الجزيل ، وهو الخلود في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، وبالأزواج المطهرة ، وبالرضوان العظيم من الله رب العالمين .

(١) السابق ٤٤٢/١

وقد وصفهم تعالى بأنهم أعلنوا إيمانهم بالله متضرعين إليه في محبة ورغبة قائلين : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أي ربنا صدقنا بك ، وبكتابك ، وبرسولك ، فتجاوز عنا أخطأنا بفضلك ورحمتك .

ثم وصفهم تعالى بقوله : " ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ أي : هم الصابرون في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات ، وهم المصدقون بالمغيبات التي أخبر بها رسولهم في كتاب ربهم .

وهم الخاضعون الطائعون لله ورسوله فيما كرهوا وأحبوا ، وهم الذين ينفقون من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقربات ، ومواساة ذوي الحاجات ، وهم الذين يقومون ليلهم راکعين لله ساجدين ، مستغفرين بالأسحار^(١) .

الملاحم البلاغية للدعاء :

لم يبدأ قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ بالعاطف على الآية السابقة ، لأنه عطف بيان للذين اتقوا المذكورين في الآية السابقة ، فالفصل لكمال الاتصال .

والتعبير بالموصول ﴿ الَّذِينَ ﴾ جاء ليتناول جميع العباد الذين يصدر منهم هذا القول ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٣/١ .

وصيغة المضارع ﴿ يَقُولُونَ ﴾ تدل على تجدد هذا الدعاء منهم ، واستمرارهم عليه .

والتأكيد في ﴿ إِنَّا آمَنَّا ﴾ ينبئ عن قوة إيمانهم برهم ، وعظيم محبتهم له . أما إعلانهم للإيمان قبل الدعاء فيدل على أن الأصل في صلاح العمل ، وقبول إجابة الدعاء هو الإيمان الصادق بما أخبر الله به ورسوله من محكم التنزيل ومتشابهه الذي لا يعلم تأويله إلا الله سبحانه .

والجمع في الدعاء بين طلب غفران الذنوب ، والوقاية من النار يؤدي إلى السعادة الأبدية وهو دخول الجنة ، فمن غفر الله ذنوبه، ووقاه النار غمرته رحمة الله فسعد في دنياه وأخراه .

والذين يجازون بالجنة هم العباد المتميزون بالصبر والصدق والقنوت لله والإنفاق من أموالهم ولاستغفار لذنوبهم وبخاصة في (الأسحار) وقت نوم كثير من الناس .

وذكرت هذه الصفات دون غيرها من صفات عباد الله ؛ لأنها ركائز الصفات التي يتحلى بها المتدينون :

فالصبر هو الركيزة الأولى لفعل الطاعات ، وترك المنكرات . والصدق هو الركيزة الثانية للاستقامة في العمل وإتقانه ومحبته ، وعنوان الثقة بين أفراد الأمة في المعاملات .

والقنوت هو الركيزة الثالثة لملازمة العبادات في أوقاتها وفي حال السراء والضراء .

والإنفاق هو الركيزة الرابعة في التقرب إلى الله بالمال المحبب إلى النفس ؛ لإقامة أود المحتاجين من أفراد الأمة .

والاستغفار بالأسحار ركيزة خامسة من ركائز استدامة الصلة بالله وبخاصة في أواخر الليل ، لما في هذا الوقت من هدوء النفس وشدة الإخلاص لله بعيداً عن أعين الناس والشواغل^(١).

وهو من الأوقات التي يستحب فيها الدعاء ؛ لما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال " ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له " ^(٢) الحديث .

المطلب الثالث: بلاغة دعاء الثناء :

الدعاء لدى علماء الشريعة ينقسم قسمين :
الأول : دعاء الطلب والسؤال وهو الذي يتضمن طلباً وسؤالاً بألفاظ الأمر والنهي .

الثاني : دعاء الثناء وهو الذي لا تطلب فيه شيئاً معيناً في دعائك، لكن كل ما ترغب فيه هو أن تنزه الله جل وعلا وتمدحه وتذكر إنعامه عليك وأياديه فيك. ^(٣)

وهنا في آيات أخر من هذه السورة نلتقي بهذا النوع الآخر من الدعاء وهو دعاء الثناء الموحى بدعاء الطلب وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اَللّٰهُمَّ مَلِكُ

(١) انظر: التحرير ١٧١/٣ .

(٢) صحيح البخاري كتاب : أبواب التهجد بالليل : باب الدعاء والصلاة من آخر الليل وقال الله عز وجل (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) أي ما ينامون وبالأسحار هم يستغفرون الذاريات رقم الحديث : ١٠٩٤ الجزء ١ : الصفحة ٣٨٤ صحيح البخاري .

(٣) انظر: بدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزية : ٢/٣ .

الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ
وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ
مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧] .

سياق الآيتين ، ومعناها العام :

قبل هاتين الآيتين ذكر تعالى طائفة من دلائل التوحيد والنبوة ، وأعلن عن
صحة دين الإسلام وهيئته عن الأديان كلها ثم قال لرسوله ﷺ : ﴿ فَإِنْ
حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۚ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠] .

ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بالله ، وقتلهم الأنبياء والصالحين بغير
حق ، وذكر شدة عنادهم وعمردهم في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا
نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣] .

ثم ذكر شدة غرورهم بقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
مَّعْدُودَاتٍ ۚ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٤] .

ثم ذكر وعيدهم بقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ

كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٥].

وهنا في هاتين الآيتين أمر تعالى رسوله ﷺ بدعاء وتمجيد يدل على مباينة طريقه وطريق أتباعه ، لطريقة هؤلاء المعاندين المعرضين فقال معلماً بنيه كيف يمجّد ربه ويعظمه ويدعوه ويطلبه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ ﴾^(١).

فالله تبارك وتعالى يخاطب بنيه ﷺ أن يقول معظماً لربه وشاكر له ، ومفوضاً إليه الأمر ومتوكلاً عليه أن يقول : ﴿ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ ن ﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : يا الله يا مالك الملك أنت المعطي ، وأنت المانع ، الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، أنت الذي تغني وتفقر من تشاء ، وأنت الذي تعز وتذل من تشاء ، وأنت الذي وحدك على كل شيء قدير ، وأنت الذي تدخل الليل في النهار وتدخل النهار في الليل ، فتأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا ، فيعتدلان ثم تأخذ من هذا في هذا ، فيتعاوران ثم يعتدلان .

وأنت الذي تخرج الحي من الميت ، وتخرج الميت من الحي ، فتخرج الزرع من الحب والحب من الزرع ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ... وأنت الذي تعطي المال من تشاء بغير حساب^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٣٥٣ ،

(٢) انظر: تفسير الرازي ٢/٨ . دار الكتب العلمية . طهران . ط ٢ .

وهاتان الآيتان من الدعاء بناء على ما تبرزانه من التعظيم والتمجيد لله تعالى ، وبناءً على ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآيات من آل عمران : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(١) .

وعن معاذ رضي الله عنه " أنه شكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ديناً عليه ، فعلمه أن يتلو هذه الآيات ، ثم يقول :

" رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطي من تشاء منها ، وتمنع من تشاء ، ارحمني رحمة تغنيني بها عما غفلت عنها ، اللهم اغني من الفقر ، واقض عني الدين " ^(٢) .

الملاحم البلاغية للدعاء:

والمستأمل في الآيتين يجد أنهما يشترقان بنداء خاشع ... " في تركيبه اللفظي إيقاع الدعاء وفي ظلاله المعنوية روح الابتهاال ، وفي التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر في رفق وإيناس ، وفي جمعه بين تدبير الله وتصريفه لأمر الناس ولأمر الكون إشارة إلى الحقيقة الكبيرة : حقيقة الألوهية الواحدة والقوامة على الكون والناس " ^(٣) .

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣٥٦/١ .

(٢) انظر: المعجم الكبير ١٣٣/١٢ ، باب العين ، رقم الحديث ١٢٧٩٢ ، والسابق ٣٥٦/١ . وانظر

المعجم الصغير ٢٤٢/١ ، باب العين رقم الحديث ٥٥٩ ، وفتح القدير ٣٣٠/١ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٨٤/٣ .

وافتح الآية الأولى بـ ﴿قُلْ﴾ يشير إلى الحالة التي اقتضت التصريح بكلمة ﴿قُلْ﴾ خطاباً للرسول ﷺ الذي يتلقى من الله الوحي ، ذلك أن رسول الله ﷺ لما خط الخندق عام الأحزاب ، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً ، وأخذوا يحفرون ، خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول ، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره ، فأخذ المعول من سلمان فضرها ضربة صدعتها ، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها ، لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم ، وكبر وكبر المسلمون وقال : أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية فقال : أضاءت لي منها القصور الحمر من الروم ، ثم ضرب الثالثة فقال : أضاءت لي قصور صنعاء ، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمي ظاهرة على كلها ، فأبشروا ، فقال المنافقون : ألا تعجبون ، بمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا "فنزلت" (١).

ولما كان السياق في الآيات السابقة يحمل حديثاً عن أهل الكتاب جاء هذا الدعاء بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

(١) الكشف ١/ ٣٤٤، ٣٤٥، وأيسر التفاسير ١/ ٢٥٢، ط ٢، ١٤٠٧هـ.

— لما كان الأمر كذلك جاء هذا الدعاء استثنافاً ابتدائياً دون عاطف .
وفي هذا الدعاء تعريض بأهل الكتاب يشير إلى أن إعراضهم عن دعوة
النبي صلى الله عليه وسلم.

نابع من الحسد على زوال النبوة منهم ، وانتقال الملك عنهم^(١).
وفي هذا الدعاء إعلام من الله لنبيه بظهور الإسلام على الدين كله ، ولو
كره الكافرون ، وبشارة بقرب قيام الدولة الإسلامية .

والتأمل في قوله ﴿ مَلِكِ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يجد تجانساً
عجيباً يسمى جناس الاشتقاق وذلك بين كلمة مالك الملك .
وهذا التجانس يضيف على النظم جمالاً لفظياً فوق الجمال المعنوي الذي
تحمله تلك الكلمات المتجانسة .

فالملك الأول عام شامل ، والملكان الآخران خاصان بعضاً من الكل .
فالتعريف في الملك الأول لاستغراق الجنس أي كل ملك هو في الدنيا .
والتعريف في الملك الثاني والثالث للجنس دون استغراق أي طائفة وحصّة
من جنس الملك^(٢).

والدلالة البلاغية للتعريف في ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ تجعل لفظ
﴿ الْمُلْكَ ﴾ متناولاً لجميع أنواع الملك ، فيدخل فيه ملك النبوة وملك العلم ،
وملك العقل ، وملك الصحة ، وملك الأخلاق الحسنة ، وملك النفاذ والقدرة
وملك الحجة ، وملك الأموال^(٣).

(١) انظر: التحرير ٢١٢/٣.

(٢) انظر: الكشف ٣٤٥/١، والتحرير ٢١٣/٣.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٧/٨.

والتعبير بالمضارع ﴿ تُوْتِي ﴾ ﴿ وَتَنْزِعُ ﴾ ﴿ وَتُعِزُّ ﴾ ﴿ وَتُذِلُّ ﴾ ينبئ عن تجدد هذه الأفعال واستمرارها في هذه الحياة ، بتدبيره سبحانه .

والواقع خير شاهد على ذلك ففي كل يومٍ أو ساعةٍ أو لحظةٍ يؤتي الله من يشاء نوعاً من الملك أو أنواعاً . وفي كل يومٍ ينزع الله ملكاً من أعطاه لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وفي كل يومٍ يذل سبحانه من يشاء .

والمقابلة البديعة بين الجمل الأربع :

﴿ تُوْتِي الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ هي وجه مشرق من وجوه النظم القرآني العجيب المؤثر في النفس .

فعندما يسمع السامع جملة ﴿ تُوْتِي الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يتبادر إلى الذهن جملة ﴿ وَتَنْزِعُ الْمُلْكُ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ فيتأكد المعنى ، وتتم المقابلة .

وعندما يسمع جملة ﴿ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يتبادر إلى الذهن جملة ﴿ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ فيتأكد المعنى ، وتتم المقابلة .

وتقدم الجار والمجرور ﴿ بِيَدِكَ ﴾ على ﴿ الْخَيْرُ ﴾ يفيد معنى القصر أو التخصيص أي بيدك يا الله وحدك الخير كله .

فالتعريف في ﴿ الْخَيْرُ ﴾ للاستغراق فكل مفردات الخير بيده سبحانه .

وذكر ﴿ الْخَيْرُ ﴾ هنا دون الشر ؛ لأسرار بلاغية منها أن الكلام جاء في الخير الذي يسوقه الله إلى المؤمنين ، وهو الذي أنكرته الكفرة ، فكأن المؤمن بهذا الدعاء يقول : بيدك يا رب الخير تؤتيه أوليائك على رغم من أعدائك .

أو نظراً إلى أن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادرٌ عن الحكمة والمصلحة ، وهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه .

أو لرعاية الأدب في مخاطبة المولى سبحانه ^(١).

وفي ختام الآية بقوله : ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لطائف بلاغية منها :

أ - تأكيد معنى الآية المتضمن بيان قدرته تعالى في تصريف الأمور كيف يشاء وهذا التأكيد يسمى عند البلاغيين تشابه الأطراف أو التناسب الذي يعد من المحسنات المعنوية التي تحسن الأسلوب وتؤكد المعاني في الأذهان .

ب - الفصل لشبه كمال الاتصال عند البلاغيين بين هذا الختام ﴿ إِنَّكَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وما سبقه ؛ لأن هذه الجملة جواب لسؤال

نابع من الجملة السابقة.

فالختام هنا يتضمن تعليلاً لما سبق ، وإجابة لما قد يخطر بالبال من الأسئلة التي تثيرها الآية الكريمة .

وكما أن هذا الختام يتناسب مع مضمون الآية كلها ، فإنه يتناسب في الوقت نفسه مع مطلع الآية الثانية ، ومع مضمونها كله .

ذلك أن ن الله على كل شيء قدير ، ومن تلك الأشياء ما جاء ذكره في الآية الأولى ، ومنها ما جاء ذكره في الآية الأخرى ، كمظاهر بارزة من عجائب قدرته سبحانه في قوله : ﴿ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي

(١) انظر: الكشاف ٣٤٥/١ ، وتفسير أبي السعود ٤٦١/١ .

الَّيْلِ^ط وَتُخْرِجُ^ط الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيَّتِ وَتُخْرِجُ^ط الْمَمِيَّتَ مِنَ الْحَيِّ^ط وَتَرْزُقُ^ط مَنْ
نَشَأَ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

والتعبير بالمضارع ﴿ تُولِجُ ﴾ ﴿ وَتُخْرِجُ ﴾ ﴿ وَتَرْزُقُ ﴾ يدل على
مظاهر متكررة ومستمرة متجددة من عجائب قدرته تعالى :

وأولها في الآية هذه أنه تعالى (يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في
الليل ...) " وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار ، وإيلاج النهار في الليل
هو أخذ هذا من ذاك ، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول أو كان
هو دخول هذا في هذا عند ديبب الظلمة ، وديبب الضياء في الإمساء والإصباح
.. فإن المؤمن يرى عجيب قدرته تعالى وهي تحرك الأفلاك ، وتقلب مواضع
الظلمة ، ومواضع الضياء .

شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاء النهار ... وشيئاً فشيئاً يتنفس
الصباح في غيابة الظلام ... شيئاً فشيئاً يطول الليل ، وهو يأكل من النهار في
مقدم الشتاء ... وشيئاً فشيئاً يطول النهار ، وهو يسحب من الليل في مقدم
الصيف .

وهذه أو تلك حركة لا يدعي الإنسان أنه هو الذي يمسك بخيوطها الخفية
الدقيقة ، ولا يدعي كذلك عاقل أنها تمضي هكذا مصادفة بلا تدبير "(^١) .

ومن بلاغة التعبير بقوله : ﴿ تُولِجُ^ط اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ^ط النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾
أنه يرمز " إلى ما حدث في العالم من ظلمات الجهالة ، بعد أن كان الناس على
دين صحيح كدين موسى ، وإلى ما حدث بظهور الإسلام من إبطال

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٣٨٤ .

الضلالات ، ولذلك ابتدئ بقوله: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ ﴾ ؛ ليكون الانتهاء بقوله ﴿ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ فهو نظير التعريض الوارد في قوله : ﴿ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ ﴾ الآية ^(١) .

ولعل تقديم الليل على النهار في هذا السياق القرآني وفي غيره يدل على الأصل في هذا الكون وهو الظلام .

وإذا تأملت في نظم هذه الآية تلحظ المقابلة البديعة التي تعد سرّاً من أسرار بلاغتها :

فعندما تسمع هذه الجملة ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يتبادر إلى ذهنك الجملة الأخرى : ﴿ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ .

وعندما تسمع هذه الجملة ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ ﴾ يتبادر إلى ذهنك ﴿ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ .

وكل جملة من هذه الجمل لها دلالتها البلاغية :

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾
يَحْمِلُ وَجُوهًا بِلَاغِيَّةً مُحْتَمَلَةٌ هِيَ أَنَّهُ تَعَالَى :

١- يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر ، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح عليه السلام .

٢- يخرج الطيب من الخبيث ، والخبيث من الطيب .

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢١٤/٣.

٣- يخرج الحيوان من النطفة ، والطير من البيضة ، ويخرج النطفة من الحيوان ، والبيضة من الطير .

٤- يخرج السنبل من الحبة ، والحبة من السنبل ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة .^(١)

والعكس أو التبديل في هذه الجمل له بلاغته المعنوية والجمالية ؛ إذ لا يتم المعنى بأن يقال : توج الليل في النهار ، أو يقال : وتخرج الحي من الميت ، لأن الجملة المقابلة تحمل معنى يختلف تماماً عن معنى الجملة الأولى كما رأيت ذلك فيما سبق .

ولعل من أسرار تقديم ﴿ الْحَيِّ ﴾ على ﴿ أَلْمَيِّتِ ﴾ في ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ أَلْمَيِّتِ ﴾ التنبيه على عظيم قدرة الله في إخراج من يتصف بالحياة ممن يتصف بالموت .

وفي ختام الآية بقوله تعالى : ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لطائف بلاغية منها :

- ١- أنه تعالى يعطي من يشاء ما يشاء لا يحاسبه على ذلك أحد ؛ إذ ليس فوقه ملك يحاسبه ، بل هو الملك يعطي من يشاء بغير حساب .
- ٢- أنه يرزق من يشاء رزقاً غير محدود ولا مقدور ، بل يبسط له ويوسع عليه كما يقال : فلان ينفق بغير حساب إذا وصف عطاؤه بالكثرة .
- ٣- أنه يرزق من يشاء بغير حساب ، على سبيل التفضل من غير استحقاق ؛ لأن من أعطي على قدر الاستحقاق فقد أعطي بحساب .^(٢)

(١) انظر: تفسير الرازي ٩/٨ .

(٢) السابق ١٠/٨

والمأمل في هذه الصفات التي وردت في الآيتين يرى فيها معلماً بلاغياً كبيراً
لأنها ترد القلب البشري إلى الحقيقة الكبرى .. حقيقة الألوهية الواحدة ..
حقيقة القوامة الواحدة .. وحقيقة التدبير الواحد .. وحقيقة المالكية الواحدة ،
وحقيقة العطاء الواحد .

وهي حقائق لا يتصف بها إلا الله الحي القيوم ، مالك الملك ، المعز المذل ،
المحيي المميت ، المانع المانع .^(١)
إنه الله الذي يجب أن يتجه إليه الناس بعبادتهم ، ودعائهم ؛ ليكونوا من
الراشدين .

المطلب الرابع : بلاغة دعاء امرأة عمران :

وفي هذه السورة نطالع كذلك دعاء امرأة عمران في قوله سبحانه :
﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ
مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا
بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا
نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا
رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُرِزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ آل عمران: ٣٥-٣٧ ﴾ .

(١) انظر في ظلال القرآن ٣/ ٣٨٥ .

سياق الآيات ومعناها العام :

يحيى هذا الدعاء بعد قوله تعالى : ﴿ إِنَّا اللَّهُ أَصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَآلَ
إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿ [آل عمران: ٣٣-٣٤] - يحيى لبيان أصل قصة مريم التي جعلها الله وابنتها
آية للعالمين ، وهو هذا الدعاء الوارد معنا في هذه الآيات .
ومريم وابنها عيسى عليهما السلام من الذين ذكر الله اصطفاؤهم في الآية
السابقة، وهم آل عمران .

وهنا في هذه الآيات يخبر تعالى بقصة دعاء أم مريم ، أنها قالت ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي يا رب نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني خالصاً لك ، فتقبل مني.

وقالت لما ولدتها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ أي: يا رب ولدتها أنثى لا تصلح للخدمة في بيت المقدس . والله أعلم بما ولدت . والله أعلم بأن الذكر ليس في الخدمة كالأنثى .

وقالت : ﴿ وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

ومع أنها أنثى فإن الله تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه تعالى أنبتها نباتاً حسناً
فجعل لها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها

بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير ، فجعل زكريا كافلاً لها . وكان إذا دخل عليها في كل وقت وجد عندها رزقاً عجيباً في غير زمانه .

فإذا رأى زكريا ذلك عندها قال : يا مريم من أين لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب ^(١) .

الملاحم البلاغية للدعاء:

تحمل هذه الآيات إعجازاً غيبياً ينقله الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى طائفة من النصارى عن طريق الوحي بهذا القرآن ، لبيان أمر مهم يتعلق بشأن المسيح عليه السلام .

فحين ادعى وفد نجران ما ادعوه في عيسى عليه السلام من تأليهه ، وتأليه أمه أنزل الله تعالى هذه الآيات يبين فيها مبدأ أمر عيسى وأمّه مريم ، فأخبر تعالى أنه اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران -اصطفاهم لدينه ، واختارهم لعبادته ففضلهم بذلك على الناس ، وأخبر أنهم ذرية بعضها من بعض لم تختلف عقائدهم ، ولم تتباين فضائلهم ... ثم أخبر أنه سميع لقول امرأة عمران عليهم بجالها لما قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ ^(٢) .

وافتح قصة هذا الدعاء بـ ﴿ إِذْ ﴾ ليتوجه الأمر بالذكر إلى الوقت أي اذكر وقت قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً ؛ اهتماماً ^(٣) بالخير ، لأن التعبير بـ ﴿ إِذْ ﴾ يهيئ النفس لتلقي ما يعقبها ، فيتمكن فيها فضل تمكن .

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣٦٤/١ .

(٢) انظر: أيسر التفاسير ٢٥٧/١ .

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١٣٨/١ .

ولم يصرح السياق باسم امرأة عمران ، لأن ذكره لا يضيف إلى السياق أمراً مهماً للمخاطب ، بل الأشرف لها ، والأنسب للسياق أن تذكر باسم زوجها كما يقال امرأة الملك أو امرأة الأمير.^(١)

ولما تفردت هذه السورة بذكر قصة امرأة عمران في هذا الدعاء - سميت السورة سورة آل عمران .

وحذف حرف النداء في دعائها : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ يشعر بقوة الصلة بين المؤمن وخالقه .

وإثارة وصف الربوبية ينبئ عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب .^(٢)
والإضافة إلى ضميرها ﴿ رَبِّ ﴾ يوحي بتذلل العبد لخالقه وحرصه على إجابة دعائه .

والتأكيد في هذا الدعاء يبرز وفور رغبة الداعي في تحقيق مضمونه.^(٣)
وتقديم الجار والمجرور : ﴿ لَكَ ﴾ يفيد كمال الاعتناء بجعل النذر لله وحده .
والتعبير عن الولد بـ ﴿ مَا ﴾ لأن أمره لا يزال مبهماً .^(٤)

وكلمة ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ فيها تشريف لهذا المولود ، لأنه سيكون خالصاً لخدمة بيت المقدس ، فكأنه حرر من أسر الدنيا وقيودها إلى حرية عبادة الله .^(٥)

(١) انظر: التحرير ٢٣٢/٣ .

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٤٦٩/١ .

(٣) السابق ٤٦٩/١ .

(٤) السابق ٤٦٩/١ . وفتح القدير ٣٣٢/١ .

(٥) انظر تفسير أبي السعود ٤٦٩/١ ، والتحرير ٣٣٢/٣ .

وبعد أن خاطبت المولى وأعلمته بهذا النذر طلبت منه سبحانه أن يتقبله منها
فهو تعالى السميع لدعائها ، العليم بنيتها .

وختام الآية بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ يحمل لطائف
بلاغية منها :

١- التأكيد بـ ﴿ إِنَّكَ ﴾ وضمير الفصل ﴿ أَنْتَ ﴾ وتعريف طرفي الجملة:

﴿ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . وهو تأكيد يفصح عن الشاء على الله بما هو
أهله .

٢- التناسب البديع بين مضمون الآية المتضمن ذلك الدعاء ، وذكر صفتي
السمع والعلم.

فالسمع يتناسب مع قول الدعاء ، والعلم يتناسب مع طبيعة النية الدافعة
إلى ذلك الدعاء .

٣- القصر المفهوم من تعريف طرفي الجملة المفيد للشمول ، فقولها :

﴿ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعي
ودعائي . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ أي بكل المعلومات التي منها ما في ضميري ^(١).

والعطف بـ " الفاء " في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا

أُنْثَىٰ ﴾ يدل على الترتيب والتعقيب ؛ إذ القول السابق وهو ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ

لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ كان منها حين حملها ، والقول الثاني كان منها

حين وضعها فهو قول صدر منها عقب وضعها .

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٤٦٩/١ .

والتأنيث في ﴿ وَضَعْتُهَا ﴾ باعتبار ما علم من المقام أن الذي في بطنها أنثى ،
أو لكونه أنثى في علم الله ، أو بتأويل ما في بطنها بالنفس أو النسمة أو نحو
ذلك ^(١).

والتأكيد في قولها: ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْثَى ﴾ ؛ لإظهار تحسرها وحزنها على فوات
ما كانت ترجوه من كون ما في بطنها ولداً يصلح لخدمة بيت المقدس ^(٢).

وتأتي الجملة الاعتراضية بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ ؛ ليدل
على التعظيم من جهته تعالى لموضوعها ، والتفخيم لشأنه ، والإفصاح عن
جهلها بعظيم قدره ، فالله أعلم بالشيء الذي وضعته ، وما سيتعلق به من عظام
الأمر ؛ إذ صارت مريم وابنها آية للعالمين ^(٣).

ولقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ قراءات أخرى غير القراءة
المشهورة ، ولكل قراءة بلاغتها :

فإذا قرئ (وضعت) على أنه خطاب من الله تعالى لها ، يكون المعنى إنك لا
تعلمين قدر هذا الموهوب ، وما أودع الله فيه من علو الشأن وسمو المقدار .
وإذا قرئ (وضعتُ) على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب وهو
قولها : ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أَنْثَى ﴾ إلى الغيبة يكون في هذا الاعتراض إظهار منها
لغاية الإجلال لله تعالى المفيد للاعتذار إلى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح
لما نذرته من السدانة .

(١) انظر: الكشف ٣٤٩/١ ، ٣٥٠ ، وتفسير أبي السعود ٤٧٠/١ ، وفتح القدير ٣٣٤/١ ، والتحرير
٢٣٢/٣ ، ٢٣٣ .

(٢) انظر: فتح القدير ٣٣٤/١ .

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧١/١ .

وفيه كذلك تسلية لنفسها على معنى لعل لله تعالى فيه سرّاً وحكمة ،
ولعل هذه الأنثى خير من الذكر ^(١).

والاعتراض الآخر بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ يبين ما في الأول
من تعظيم الموضوع ورفع منزلته ^(٢).

والتعريف في كلمتي : (الذكر) و (الأنثى) للعهد المعهود في نفسها ، فإن
المعنى المترتب على ذلك : ليس الذكر الذي كانت تطلبه وتخيّل كماله ،
ليكون كواحد من السدنة كالأنثى التي وهبت لها .

وقيل : التعريف للجنس أي ليس جنس الذكور مساوياً لجنس
الإناث ^(٣) .

وكلاهما يحتملها السياق والله أعلم .

وقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف على قولها السابق ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا
أُنْثَى﴾ كما يظهر من السياق . والتأكيد هنا يبين عظيم رغبتها في هذا الاسم
الدال على معنى العبادة ، لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة قال القرطبي معناه :
خادم الرب ^(٤).

والتأكيد في ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا﴾ يدل على الاهتمام الشديد بأن يحفظها
وذريتها من شر الشياطين .

(١) السابق ١/٤٧٠ .

(٢) السابق ١/٤٧٠ .

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ١/٤٧٠ ، والتحرير ٣/٢٣٣ .

(٤) انظر: الكشف ١/٣٥٠ ، ٣٥١ ، وتفسير أبي السعود ١/٤٧١ ، وتفسير القرطبي ٤/٦٨ .

والتعبير بالمضارع : ﴿ أُعِيدُهَا ﴾ يدل على طلب حفظها في الحال والمستقبل ، أي الاستمرار في حفظها ^(١) .

وتقدم ﴿ بِلَكَ ﴾ في ﴿ أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ على ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ لإبراز كمال العناية بالالتجاء إلى الله في طلب الحفظ لمريم وذريتها ^(٢) .

وفي قوله : ﴿ فَتَقْبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يأتي الإعلان عن إجابة دعائها ، جزاء إخلاصها لله تعالى في نذرها .
والتعبير بـ " الفاء " في مطلع الآية يدل على سرعة الإجابة لدعائها ^(٣) .
وإشار كلمة ﴿ رَبُّهَا ﴾ يوحي إلى النفس بأنه تعالى مالکها ومبلغها إلى كما لها اللائق بها ، وفيه من تشریفها ما لا يخفى ^(٤) .

وجناس الاشتقاق في ﴿ فَتَقْبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ ﴾ وفي ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ له أثره الكبير في جمال النظم القرآني وتأکید معناه في النفوس .
فشتان بين أن يقال : فتقبلها وأنبتها ، وما جاء عليه النظم القرآني في روعته وتأثيره ، ووضوحه وقوة دلالة .

ومع جناس الاشتقاق في ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يجد المتأمل تصويراً جميلاً للمعنى المراد ، وهو أنه تعالى أنشأها إنشاءً صالحاً في الخلق والخلق ؛ إذ صور ذلك بإنبات النبات الغض على طريقة التصوير البياني الاستعاري ^(٥) .

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧١/١ .

(٢) السابق ٤٧١/١ .

(٣) انظر: التحرير ٢٣٥/٣ ، وفي ظلال القرآن ٣٩٣/٣ .

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧٢/١ .

(٥) انظر: الكشف ٣٥٢/١ ، والتحرير ٢٣٥/٣ .

ومن دلائل الإنبات الحسن أن الله تعالى جعل زكريا كافلا لها ؛ إذ هو صالح من صلحاء بني إسرائيل جاءته النبوة في كبره ^(١). قال ابن كثير : " وإنما قدر الله كون زكريا كفلا لسعادتها ؛ لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً ، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما ، وقيل : زوج أختها كما ورد في الصحيح : " فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة " ^(٢).

ومن دلائل الإنبات الحسن كذلك أن زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا ، قال تعالى : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُنِي لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

والتأمل في هذا النظم القرآني يجد أن تقديم ﴿ كَلَّمَا ﴾ على الفاعل ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ يدل على كمال عناية الله بأمرها ففي أي وقت يدخل عليها زكريا يجد عندها رزقا ^(٣) .

وتنكير ﴿ رِزْقًا ﴾ يوحي إلى النفس بأنه نوع غير معتاد ؛ إذ كان ينزل ذلك من الجنة ، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ^(٤) .

(١) انظر: التحرير ٢٣٥/٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٦٠/١ .

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧٢/١ .

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧٢/١ ، وتفسير الرازي ٣٠/٨ .

وجاءت جملة : ﴿ قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال ؛ لأنها استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عند مشاهدة الرزق عندها ؟ فقيل : قال ﴿ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ ؟ والاستفهام هنا وارد على حقيقته ويحمل في الوقت نفسه معنى التعجب أي من أين جاء لك هذا الرزق والأبواب مغلقة دونك ^(١).

ثم أجابت مريم : ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ .

والملاحظ هنا أن الجملة لم تعطف على ما قبلها كأن يقال : وقالت : لأنها استئناف مبني على سؤال ناشئ من الحال كأنه قيل : بم أجابت على سؤال زكريا واستغرابه ؟

قالت : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ، فلا تعجب ولا تستبعد ^(٢).

وختام الآية بقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يحمل لطائف بلاغية منها:

- ١- التأكيد بـ ﴿ إِنَّ ﴾ لمضمونها حتى يتقرر في نفوس السامعين .
- ٢- التناسب البديع بين هذا الختام وسياق الآية .
- ٣- التعبير بصيغة المضارع الدال على أن الله يرزق من يشاء في الحال والاستقبال .

(١) انظر تفسير أبي السعود ٤٧٣/١ .

(٢) السابق ٤٧٣/١ .

٤ - فصلها عما قبلها يجعلها صالحة للاستشهاد بها، أو التمثل بلفظها إذا دعا المقام إلى ذلك، أو كما يقول البلاغيون: تتضمن تذيلا يجري مجرى المثل .

المطلب الخامس : بلاغة دعاء زكريا عليه السلام :

وبعد هذا الدعاء مباشرة نلتقي بدعاء زكريا عليه السلام في قوله تعالى :
﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ۖ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْثِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ [آل عمران: ٣٨-٤١].

سياق الآيات ومعناها العام :

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق من يشاء بغير حساب كما أخبر سبحانه بذلك في الآيات السابقة ، ومن ذلك أن الله رزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء .

لما رأى ذلك عياناً طمع زكريا حينئذ في الولد ، وإن كان شيخاً كبيراً قد وهن منه العظم ، واشتعل الرأس شيباً ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً قائلاً : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

ذُرِّيَّةٌ طَيِّبَةٌ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١﴾ أي : رب أعطني من عندك ولداً صالحاً

إنك مجيب دعاء الصالحين من عبادك المؤمنين.

فاستجاب الله دعاءه إذ خاطبته الملائكة شفهاً خطاباً أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته وصلاته : بأن الله يبشره بولد يوجد له من صلبه اسمه يحيى .

وهذا الولد يتصف بصفات عالية منها أنه يصدق بعيسى بن مريم فهو من الصديقين السابقين إلى الخيرات .

وأنه سيكون سيداً على قومه في العلم والعبادة والحلم والشرف وفي سائر الصفات الفاضلة .. وأنه سيكون حصوراً عن المعاصي، حاصراً نفسه عن الشهوات، مانعاً نفسه منها .

وأنه سيكون نبياً من أصلاب الأنبياء الصالحين .

ولكن زكريا عليه السلام أدركته الدهشة من أن يأتي له ولد وهو كبير السن قريب من الموت، وامرأته مع ذلك كبيرة السن ، وكانت عاقراً .

حين أدركته الدهشة قال: ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ

وَأَمْرَاتِي ﴾ أي : رب كيف يكون لي غلام، ومن أين؟ والحال أني كبير في السن ، وامرأتي عقيم - فكان الجواب أن الله يفعل ما يشاء لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه .

ثم سأل زكريا ربه أن يجعل له علامة يستدل بها على وجود الولد، فأجابه تعالى أن علامة ذلك أن لا يقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام إلا بإشارة رأس أو يد أو نحو ذلك مع أنه سوي صحيح الجسم ، ثم أمره تعالى في هذه الحال بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح وبخاصة في وقت العشي والإبكار ^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣٦٢/١-٣٦٤.

الملاحم البلاغية للدعاء:

تبدأ قصة دعاء زكريا -عليه السلام- بقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ ﴾ .

وترد في السياق دون عاطف لأنها كلام مستأنف، وقصة مستقلة، وردت في سياق حكاية قصة مريم لما بينهما من قوة الارتباط، وشدة الاشتباك، إذ فيها مزيد بيان لاصطفاء آل عمران وذكر فضائلهم .^(١)

وللتعبير بـ ﴿ هُنَالِكَ ﴾ بلاغة عظيمة من حيث دلالتها على استحضار الصورة والحال التي دعا فيها زكريا عليه السلام، فإذا قرأ المسلم الواعي هذه الكلمة أو سمعها تخيل في ضوء السياق زكريا عليه السلام وهو يدعو ربه بذلك الدعاء في ذلك الوقت وفي ذلك المكان المخصص لمناجاته وعبادته .

ويثار كلمة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في هذا السياق يعود إلى أنها تستعمل في الزمان والمكان، قال تعالى: ﴿ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾^(٢) ، وهو إشارة إلى المكان الذي كانوا فيه، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾^(٣) ، أي في ذلك المكان الضيق .

ثم قد تستعمل كلمة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في الزمان أيضاً قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْخَيِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾^(٤) ، فهذا إشارة إلى الحال والزمان .

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧٣/١ .

(٢) الأعراف : ١١٩ .

(٣) الفرقان : ١٣ .

(٤) الكهف : ٤٤ .

إذن قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ إن حملناه على المكان فهو جائز، أي في ذلك المكان الذي كان قاعداً فيه عند مريم عليها السلام، وقد شاهد تلك الكرامات دعا ربه .

وإن حملناه على الزمان فهو أيضاً جائز، يعني في ذلك الوقت دعا ربه^(١) .

وتمام البلاغة ودلالة السياق لا يمنعان من حمله على الزمان والمكان .

وكلمة ﴿ رَبُّهُ ﴾ لها إichaؤها البلاغي في هذا السياق فهي الكلمة المختارة في النظم القرآني لتدل على معنى التربية والرعاية والصلاح، فزكريا - عليه السلام - حين دعا ربه يريد رعاية من الله له وصالحاً لحاله ...

وقال زكريا - عليه السلام - في دعائه: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً

طَيِّبَةً ﴾ ولم يقل هب لي ذرية طيبة؛ لأن "حصوله في العرف والعادة له أسباب مخصوصة، فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى: أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة، وأن تحدث هذه الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من هذه الأسباب" ^(٢) .

والمراد بكلمة ﴿ ذُرِّيَّةً ﴾ النسل ، وهي كلمة تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى .

وزكريا - عليه السلام - حرص على أن يهبه الله ولداً صالحاً يكون نسله صالحين .

(١) انظر: تفسير الرازي ٣٢/٨، وتفسير أبي السعود ٤٧٣/١ .

(٢) تفسير الرازي ٣٣/٨ .

وتأنيث ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث الذرية في الظاهر ، فالتأنيث والتذكير في أسماء الأجناس تارة يجيء على اللفظ وتارة على المعنى ^(١).

ووصف الذرية بـ ﴿طَيِّبَةً﴾ ؛ لأنها هي التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة، وهي التي تعمل الأعمال الصالحة النافعة لها ولآبائها ولجماعة المؤمنين ^(٢).

وفي ختام الآية بقوله : ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ لطائف بلاغية منها :

١- تأكيد مضمون الآية بوصفه تعالى في ختامها : أنه سميع الدعاء .

٢- الثناء على الله بهذه الصفة ، فهو تعالى وحده القادر على تحقيق مطلوب زكريا وغيره من عباده المؤمنين .

٣- وصفه تعالى بأنه ﴿سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ يتضمن وصفاً آخر هو أنه يجيب دعاء المؤمنين الصادقين ، ولا يخيب رجاءهم ^(٣) .

والفاء في قوله تعالى : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ تدل على أن الله استجاب دعوته في وقتها ، خلافاً لما يراه بعض المفسرين أن الله استجاب دعوته بعد ستين سنة ^(٤).

والتعريف في كلمة ﴿الْمَلَكَةُ﴾ يدل على معنى الجنسية ، وإن كان المنادي واحداً هو جبريل عليه الصلاة والسلام ، كما تفصح عنه قراءة من قرأ

(١) انظر: السابق ٣٤/٨.

(٢) انظر: التحرير ٢٣٨/٣.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٣٤/٨.

(٤) انظر: التحرير ٢٣٨/٣.

فناداه جبريل... قال الزجاج : أي أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة .

أو أن التعريف يدل على معنى التعظيم ؛ نظراً إلى أن جبريل عليه الصلاة والسلام رئيس الملائكة فعبر عنه باسم الجماعة ، أو نظراً إلى أن الرئيس لا بد له من أتباع فأُسند النداء إلى الكل مع أنه صادر عنه خاصة ^(١)، وفي هذا تعظيم له فكأن هذا الاسم إذا أطلق تناول لا محالة جبريل، وإن لم يذكر باسمه الخاص .

والجملة الحالية : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ ﴾ جاءت مبينة وقت البشارة ومكانها ، ومعلمة بحسن عمله ، وعظيم صلته بالله ، وأنه جدير بهذه البشارة التي جاءته عقيب الدعاء ^(٢).

والتأكيد في ﴿ أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِرَحْمَةٍ ﴾ لتحقيق هذا الخبر ، وتقريره في نفس زكريا ، ليزداد سروراً بهذه البشارة العظيمة ^(٣) .

ويذكر بعض المفسرين سبب تسميته ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ ، ومن ذلك ما جاء في تفسير أبي السعود هذا الخبر المأثور عن قتادة أنه قال : " إنما سمي ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ ؛ لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان ^(٤) .

ثم وصف تعالى هذا الغلام بأربع صفات : الأولى : أنه مصدق بكلمة من الله ، وتلك الكلمة عيسى عليه السلام ؛ وسُمي كلمة ؛ لأنه وجد بكلمة كائنة منه تعالى في المشهور من أقوال المفسرين قيل : هو أول من آمن بعيسى ، وصدق بأنه كلمة الله وروح منه .

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧٤/١ .

(٢) انظر: السابق ٤٧٤/١ .

(٣) انظر: التحرير ٢٣٩/٣ .

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧٥/١ .

والثانية : أنه سيد يرأس قومه ويسودهم ، ويفوقهم في الشرف والتقوى .
 والثالثة : أنه حصور مبالغ في حصر نفسه عن الشهوات مع القدرة عليها .
 والرابعة : أنه نبي من الصالحين المشهورين بالصلاح^(١) .
 والمتأمل في هذه الصفات يجد أنها جاءت على أحسن ترتيب وأبلغه :
 فأولها : التصديق بعيسى عليه السلام تصديقاً نابعاً من إيمانه بالله ، وحسن
 توفيقه ، ودلالة صلاحه في الدنيا .
 وثانيها : السيادة القائمة على الخصال الشريفة النابعة من إيمانه بالله وتصديقه
 بعيسى عليه السلام .
 وثالثها : حصر نفسه عن الشهوات التي هي السبب في تأخير الناس عن
 التقدم في سبيل الخيرات .
 ورابعها : نبوته القائمة على جملة تلك الخصال الحميدة .
 قال الرازي : " اعلم أن السيادة إشارة إلى أمرين : أحدهما : قدرته على
 ضبط مصالح الخلق فيما يرجع إلى تعليم الدين .
 والثاني : ضبط مصالحهم فيما يرجع إلى التأديب ، والأمر بالمعروف والنهي
 عن المنكر . وأما الحصور فهو إشارة إلى الزهد التام ، فلما اجتمعا حصلت
 النبوة بعد ذلك ، لأنه ليس بعدهما إلا النبوة "^(٢) .
 وترك العطف في مطلع قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ
 بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ - لأنه استئناف مبني على سؤال ناشئ من السياق كأنه قيل

(١) انظر: الكشف ٣٥٣/١، وتفسير أبي السعود ٤٧٦/١، ٤٧٥.

(٢) تفسير الرازي ٣٧/٨.

: فماذا قال زكريا _ عليه السلام _ حينئذ فقيل : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ ۖ ﴾^(١).

ولم يخاطب زكريا _ عليه السلام _ الملك الذي ناداه بالبشارة ، وإنما خاطب ربه ؛ احترازاً عما عسى أن يتبادر إلى الذهن أن علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسط الملك ، وإسراعاً إلى التضرع إلى الله ومناجاته ، وتدليلاً على تعلق قلب زكريا بربه سبحانه لا بغيره ولو كان ذلك من الملائكة الأبرار^(٢).

والاستفهام في : ﴿ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ ۖ ﴾ معناه الاستعظام ، والاستفهام عن كيفية حدوثه^(٣) .

وقد دفعه إلى هذا الاستفهام أنه قد بلغ من الكبر عتياً ، وأن امرأته كانت عاقراً ، فإذا جاء غلام لهما في هذا السن فإن هذا يعد أمراً عظيماً يدعو الإنسان إلى مثل هذا الاستفهام ، ويدل في الوقت نفسه إلى التفكير في عظم قدرة الله سبحانه في أن يوجد لهما ولد في هذا السن .

إنما لقدرة جديرة بالتعظيم ، وجديرة بالاستفهام عن كيفية حدوث الولد . وجاء إسناد البلوغ إلى الكبر في ﴿ وَقَدْ بَلَغْنِي الْكِبَرُ ﴾ على طريق القلب . وأصله وقد بلغت الكبر ، وفائدته إظهار تمكن الكبر منه ، كأنه يتطلبه حتى بلغه ، كقوله تعالى : ﴿ أَيَتَمَّا تَكُونُوا يُذَرِّكُمُ الْمَوْتُ ۖ ﴾^(٤).

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٤٧٦/١ .

(٢) انظر: السابق ٤٧٦/١ .

(٣) انظر: تفسير الرازي ٣٨/٨ ، وتفسير أبي السعود ٤٧٧/١ .

(٤) النساء : ٧٨ .

"قال أهل المعاني: كل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك ، وكما جاز أن يقال: بلغت الكبر - جاز أن يقال: بلغني الكبر يدل عليه قول العرب : لقيت الحائط، وتلقاني الحائط .

فإن قيل : يجوز بلغني البلد، في موضع بلغت البلد ، قلنا : هذا لا يجوز ، والفرق بين الموضعين أن الكبر كالشيء الطالب للإنسان فهو يأتيه بحدوثه فيه ، والإنسان يأتيه بمرور السنين عليه ، وأما البلد فليس كالطالب للإنسان الذاهب إليه ، فظهر الفرق" (١).

وفي ختام الآية بقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ لطائف بلاغية منها :

أ- أن هذا الختام جاء دون عطف ؛ لأنه استئناف مبني على سؤال نابع من السياق كأنه قيل : بماذا أجيب ؟ فكان الجواب : قال : كذلك الله يفعل ما يشاء .

ب- التأكيد على أن الله قادر على هذا الفعل الخارق للعادة ، وهو خلق الغلام من هذين الأبوين الكبيرين ، وقادر على كل شيء يريد فعله بهذه العبارة الصريحة : ﴿ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

ولم تعطف هذه الآية : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ على ما قبلها ؛ لأنها استئناف مبني على سؤال نابع من السياق كأنه قيل : فماذا قال بعد ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ .

(١) تفسير الرازي ٣٩/٨ .

ولم يعطف قوله : ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ﴾^(١) لأنه استئناف كالسابق ، فالفصل بين هذه الجمل المبدوءة بـ ﴿ قَالَ ﴾^(٢) لشبه كمال الاتصال .

وجعل الله آيته على أن زوجه حامل بهذا الغلام أن لا يقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام ؛ ليكون متفرغاً لذكر الله ، قال الزمخشري : " فإن قلت لم حبس لسانه عن كلام الناس ؟ قلت : ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره ، توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة " ^(٣) .

وهناك علاقة عجيبة بين هذه الآية التي طلبها ، ورزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ، يقول سيد قطب : " فإذا زكريا يجد في نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره .. لسانه هذا هو لسانه .. ولكنه يحتبس عن كلام الناس ، وينطلق لمناجاة ربه .. أي قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيشة العلوية .. فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة . كذلك رزقه بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ! ^(٤) " .

وذكر تعالى هنا ثلاثة أيام ، وذكر في سورة مريم ثلاثة ليال في قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾^(٥) ليدل بمجموع الآيتين على أن تلك الآية حاصلة في الأيام الثلاثة مع لياليها ^(٦) .

(١) الكشف ٣٥٤/١ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/٣٩٥ .

(٣) مريم : ١٠ .

(٤) تفسير الرازي ٤٠/٨ .

ثم أمره تعالى بأن يذكر ربه كثيراً في هذه الآية فقال : ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ قيل : المراد بالتسبيح الصلاة بدليل تقييده بوقت العشي والإبكار ، والمراد بالذكر بالذكر باللسان ^(١) .

المطلب السادس : بلاغة دعاء مريم :

وفي هذه السورة نفسها نطالع دعاء مريم في قوله تعالى حكاية عنها : ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] .

سياق الآية ، ومعناها العام :

يجيء هذا الدعاء بعد قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦] .

وهنا يخبر تعالى عن مريم أنها لما سمعت ببيشارة الملائكة لها بابنها عيسى عن الله عز وجل قالت في مناجاتها: ﴿رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي : رب كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ولست بغيا، حاشا لله فقال لها الله أو الملك عن الله في جواب ذلك السؤال: ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي : الله يخلق ما يشاء لا يعجزه شيء إذا أراد أمرا قال له كن فيوجد بلا تأخر ^(٢) .

(١) انظر: تفسير الرازي ٤٢/٨ ، وتفسير أبي السعود ٤٧٩/١ .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣٦٤/١ .

الملاحح البلاغية للدعاء:

لم تعطف هذه الآية على ما قبلها لأنها استئناف بياني ناشئ من سؤال يوحى به السياق كأنه قيل : فماذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ما قالت ؟ فقيل : قالت متضرعة إلى ربها: ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ فالفصل عند البلاغيين لشبه كمال الاتصال.

والاستفهام يحمل معنيين بلاغيين الأول : الاستبعاد العادي والتعجب والاستعظام من قدرة الله في خلق ولد على غير المعتاد. والمعنى الثاني : الاستفهام في الوقت نفسه عن كيفية حدوثه .

وجاءت كلمة ﴿ لِي ﴾ قبل ﴿ وَلَدٌ ﴾ للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر. والجملة الحالية ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ جاءت محققة للاستبعاد المفهوم من الاستفهام أي كيف يأتيني ولد وأنا على حالة منافية للولادة ؟ وفي قوله تعالى ﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

يأتي الجواب على الدعاء ببيان أمرين الأول: التأكيد على أن الله يخلق ما يريد ، والثاني: بيان سهولة ذلك وسرعة حدوثه.

وتقديم لفظ الجلالة على يخلق، يفيد تحقيق الخبر وتقريره في النفس . وقال في قصة عيسى ﴿ يَخْلُقُ ﴾ وفي قصة ولادة يحيى ﴿ يَفْعَلُ ﴾ ؛ لأن ولادة مريم العذراء من غير أن يمسهها بشر أبداع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فان ، فكلمة الخلق هنا أنسب للمقام لأنه خلق جديد على غير المعتاد^(١).

(١) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٤٨٣، ٤٨٤، وفتح القدير ١/ ٣٤١، والتحرير ٣/ ٢٤٨.

ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ : تمثيل لكمال قدرته وسهولة حصول المقدورات حسبما تقتضيه مشيئته ، وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للأمر القوي المطاع ^(١).

المطلب السابع :بلاغة دعاء الحواريين :

وفي سورة آل عمران نلتقي بهذا الدعاء العظيم الذي يخبر به تعالى عن الحواريين : قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣] .

سياق الآية ومعناها العام :

يرد هذا الدعاء بعد قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۚ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

فعيسى عليه السلام لما أخبر الناس برسالته وأراهم الآيات الموعود بها ، ودعاهم إلى التصديق به وطاعته ، كفروا به وأحس بذلك من جماعة منهم. عندها قال مستفهماً من ينصر دين الله وينصر رسوله ، فأجابه الحواريون نحن نؤمن بالله وننصرك . واشهد يا نبي الله بأنا مسلمون لله وطائعون.

الملاحح البلاغية للدعاء:

يتجه الحواريون مباشرة إلى ربهم بهذا التضرع الخاشع ﴿ رَبَّنَا ﴾ دون أن يذكروا حرف النداء ؛ لاستشعارهم بعظيم الصلة بينهم وبين ربهم.

(١) انظر: تفسير أبي السعود ١ / ٤٨٤ .

وفي هذا التوجه المباشر لفترة ذات قيمة يوحى بها هذا الدعاء هي أن عهد المؤمن يكون ابتداء مع ربه "ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد، وانعقدت البيعة مع الله، فهي باقية في عنق المؤمن بعد الرسول.. وفيه كذلك تعهد لله باتباع الرسول. فليس الأمر مجرد عقيدة في الضمير، ولكنه اتباع لمنهج، والافتداء فيه بالرسول.

فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه، أي أن يوفقهم ويعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين، وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج. ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من الشهداء على حق هذا الدين.

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعي لنفسه الإسلام.. فهذا هو الإسلام كما فهمه الحواريون. وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقيين. ومن لم يؤد هذه الشهادة فهو آثم قلبه^(١).

والحواريون ركزوا في دعائهم على أمرين مهمين الأول: الإفصاح عن إيمانهم بالله لأنه أساس التصديق بالرسول. والثاني: الإعلان عن اتباعهم لعيسى عليه السلام، ثم طلبوا من ربهم أن يكتبهم مع الشاهدين.

والتأمل في هذا الدعاء والآية التي قبله يجد أن القرآن قد ذكر لهم عدة صفات ينبني بعضها على بعض أولها: الإيمان بالله حين ذكروا ذلك في الآية المتقدمة: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾، وثانيها: الإيمان بكتب الله حين قالوا في دعائهم: ﴿ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾، وثالثها: الإيمان برسول الله حين قالوا: ﴿وَاتَّبَعْنَا

(١) في ظلال القرآن ٤٠٢/٣.

الرَّسُولَ ﴿ ثُمَّ خَتَمُوا دَعَاءَهُمْ بِطَلَبِ الزَّلْفَةِ وَالثَّوَابِ فَقَالُوا : ﴿ فَآكُتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴾ ^(١).

وفي ختام الآية بهذا الطلب لطائف بلاغية منها :

أ- تقديم الأسباب المفضية إلى السعادة قبل طلبها .

ب- أن كلمة الشاهدين لها إichاءات بلاغية تناسب مع السياق، وهي
فاكتبنا مع الذين يشهدون بوحدانيتك . أو فاكبتنا مع الأنبياء الذين
يشهدون لأتباعهم . أو فاكبتنا مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم
شهداء على الناس أجمعين ^(٢).

المطلب الثامن: بلاغة دعاء الربيين :

وفي سياق سورة آل عمران وهي تتحدث عن غزوة أحد يذكر تعالى
دعاء الربيين في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾
فَعَاتَلَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿
[آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

سياق الآيتين ومعناها العام:

يرد هذا الدعاء بعد قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْنَا مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ
فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ ﴾ .

(١) انظر: تفسير الرازي ٦٤/٨.

(٢) انظر: تفسير الرازي ٦٤/٨، وتفسير أبي السعود ٤٩٠/١.

وهنا يخبر تعالى عن موقف هؤلاء الربيين وحالهم أثناء الجهاد في سبيله تعالى فيذكر أن ديدهم التضرع إلى الله بقولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ، فأجاب الله دعاءهم فأعطاهم النصر على الأعداء والغنيمة بالأموال ، والفوز بالجنة في الآخرة ، والله يحب المؤمنين المحسنين في أعمالهم.

الملاحم البلاغية للدعاء:

هذه الآية التي تضمنت الدعاء جاءت معطوفة على ما قبلها ؛ لأنها من الجمل المبينة لمحاسن الربيين ، ومنها هذا الدعاء ^(١).

والم تأمل في عبارة : ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ يجد أنها توحى باستمرارهم على التضرع بهذا الدعاء ، في السراء والضراء . وأن فيها قصراً إضافياً ؛ لرد اعتقاد من يتوهم أنهم قالوا ما يدل على الجزع أو الهلع أو الشك في النصر أو الاستسلام للكفار . وفي هذا القصر تعريض بالذين جزعوا من ضعفاء المسلمين أو المنافقين ^(٢) .

وتقديم الدعاء بغفران الذنوب في معرض طلب النصر على الأعداء ؛ ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع ، ويكون أقرب إلى الاستجابة ^(٣) . وأضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين ؛ هضماً لها واستقصاراً ^(٤) .

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٥٧٤/١ .

(٢) انظر: التحرير ١٢٠/٤ .

(٣) انظر: الكشف ٤١٦/١ .

(٤) السابق ٤١٦/١ .

و طلبوا غفران الذنوب والإسراف في الأمر ؛ليشمل دعاءهم صغيرها وكبيرها ... وقيل المراد بالذنوب صغائرها ،والإسراف في الأمر كبائرها."والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنباً من صغيرة أو كبيرة،والإسراف ما فيه مجاوزة للحد،فهو من عطف الخاص على العام"^(١) وطلبوا من ربه تثبيت الأقدام عند ملاقة الأعداء ؛ليحصل لهم الثبات في ميدان المعركة،والتقوية والتأييد من الله ،فينهزم الأعداء أمامهم.

وجاء هذا الدعاء على ترتيب بلاغي عجيب،ذلك أنهم قدموا قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ ؛لأن الذنوب من أسباب هزيمة المؤمنين أمام الكفار.

فلهذا المعنى وجب تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصرة. وفي هذا السياق القرآني بين تعالى " أنهم بدؤوا بالتوبة عن كل المعاصي وهو المراد بقوله : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فدخل كل الذنوب ،سواء كانت من الصغائر أو من الكبائر ،ثم إنهم خصوا الذنوب العظيمة الكبيرة منها بالذكر بعد ذلك لعظمها وعظم عقابها وهو المراد من قوله ﴿وإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ ؛لأن الإسراف في كل شيء هو الإفراط فيه ...ثم إنهم لما فرغوا من ذلك سألوا ربه أن يثبت أقدامهم،وذلك بإزالة الخوف عن قلوبهم، وإزالة الخواطر الفاسدة عن صدورهم،ثم سألوا بعد ذلك أن ينصرهم على القوم الكافرين ؛لأن هذه النصرة لا بد فيها من أمور زائدة على ثبات أقدامهم ،وهو كالرعب الذي يلقيه في قلوبهم ،وإحداث أحوال سماوية أو أرضية توجب انهزامهم،مثل

(١) فتح القدير ٣٨٧/١ ، وانظر: تفسير أبي السعود ٥٧٤/١ .

هبوب رياح تثير الغبار في وجوههم، ومثل جريان سيل في موضع وقوفهم" (١) .

ولما ذكر تعالى حال الربين في الصبر وحالهم في الدعاء، ذكر ما ضمن لهم في مقابلة ذلك في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ فَكَاتَبَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ .

والفاء في قوله : ﴿ فَكَاتَبَهُمُ ﴾ توحى بتعجيل إجابة دعوتهم ، وأن ما حصل لهم من خير في الدنيا والآخرة كان بسبب صبرهم وإخلاصهم لربهم (٢) .
وفي قوله : ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ كناية عن النصر والغنيمة والعز وطيب الذكر وفي ﴿ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ كناية عن الجنة والنعيم المخلد .

وتخصيص الحسن بثواب الآخرة؛ للإيدان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عند الله تعالى . أما ثواب الدنيا فلم يوصف بالحسن ؛لقلتها وامتزاجها بالمضار وكونها منقطعة زائلة (٣) .

وتقديم ثواب الدنيا؛للتعجيل بمسرة المؤمنين في الدنيا،وهو المناسب لتطلعات أنفسهم في عاجل أمرهم قبل آجله .
وفي الجمع بين ثواب الدنيا والآخرة مقابلة بديعة أوضحت المعنى المراد ، وكانت من أسرار الجمال في النظم الكريم .

وفي ختام الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴾ لطائف بلاغية منها :

(١) تفسير الرازي ٢٨/٩ .

(٢) انظر: تفسير الرازي ٢٨/٩ ، وتفسير أبي السعود ٥٧٥/١ ، والتحرير ١٢١/٤ .

(٣) انظر: الكشف ٤١٦/١ ، وتفسير أبي السعود ٥٧٥/١ ، وتفسير الرازي ٢٩/٩ .

١- أنها جاءت تذييلاً مقررًا لمضمون ما قبلها ، من حيث " إن هؤلاء

اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا : ﴿ رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا

فِي أَمْرِنَا ﴾ فلما اعترفوا بذلك سماهم محسنين .

٢- ثم إن هؤلاء لما أرادوا الإقدام على الجهاد طلبوا تثبيت أقدامهم في ميدان

المعركة، ونصره تعالى على عدوهم ، فعند ذلك سماهم بالمحسنين ، وهذا

يدل على أن العبد لا يمكنه الإتيان بالفعل الحسن، إلا إذا أعطاه الله

ذلك الفعل الحسن وأعانه عليه ^(١) .

٣- الإشادة بالإحسان في العمل ، والتأكيد على أن الله يحب المحسنين في

أعمالهم وأقوالهم .

واللام في كلمة ﴿ الْحَسَنِينَ ﴾ إما للعهد ، ولكن وضع المظهر موضع

ضمير المعهودين ؛ إشعاراً بأن ما حكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب

الإحسان . وإما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أولياً ، وهذا أنسب بمقام

ترغيب المؤمنين في الاتصاف بالإحسان ^(٢) .

(١) تفسير الرازي ٢٩/٩ ، ٣٠ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ٥٧٥/١ .

المطلب التاسع : بلاغة دعاء أولي الألباب :

ونحن نتأمل آيات الدعاء في سورة آل عمران نلتقي في أواخرها بهذا الدعاء مع قوله تعالى : ﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٠﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۖ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعَادَ ﴿١٩٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لِأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

[آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥].

سياق الآيات ومعناها العام :

بعد أن بدأت هذه السورة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة ... ذكر الله في ختامها بعض دلائل توحيده وقدرته تعالى ومن أعظمها خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار التي فيها الآيات البينات لأصحاب العقول

المتدبرة الذين يذكرون ربهم ، معلنين إيمانهم به سبحانه في دعاء خاشع يسوقه تعالى على ألسنتهم وهم يتفكرون في خلق السموات والأرض^(١) .

لقد جاءت هذه الآيات ، وهي تحمل إلينا هذا الدعاء ، تدعو الناس إلى التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض ؛ مينة أن في خلق السموات والأرض مشاهد عظيمة ، ومنافع كثيرة ، تدل على مبدعها ، وأن في تعاقب الليل والنهار دون انقطاع علامات بينة على عظيم قدرة الله وباهر حكمته .

وهذه الآيات النابعة من خلق السموات والأرض لا يتعظ بها إلا أصحاب العقول المستنيرة ، وهم الذين تلهج ألسنتهم بذكر الله في حال قيامهم وقعودهم وانطراحهم على جنوبهم . وهم الذين يجمعون بين ذكر الله ، والتفكير في خلق السموات والأرض ، قائلين : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴾ أي ربنا ما أوجدت هذا الخلق العظيم عبثاً وباطلاً ، بل تنزهت يا الله عن كل عمل لا فائدة منه ولا حكمة فيه ، داعين ربهم أن يقيهم عذاب النار الذي أعده لمن ظن أن خلق السموات والأرض خلق باطل ، فأفسد في الأرض بكل أنواع الفساد .

وهم الذين يدركون أن الخزي وسوء العاقبة يكون في دخول النار ، وأن الذين يدخلونها هم الظالمون الذين لا ناصر لهم في ذلك اليوم الرهيب . وهم الذين يدعون ربهم معلنين إيمانهم برسوله الذي دعاهم إلى الإيمان بالله ، طالبين منه سبحانه غفران ذنوبهم ، وتكفير سيئاتهم ، وموئتهم مع الأبرار . وهم الذين يدعون ربهم أن تكون الجنة مسكنهم ، وأن ينجيهم سبحانه من الخزي يوم القيامة ، فهو جل جلاله الذي لا يخلف ما وعد به عباده .

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٤٦-٣٤٩.

وبعد هذا الدعاء الذي ساقه تعالى على السنة أولى الألباب من المتقين - يعلن سبحانه أنه استجاب دعاءهم ، فلن يضيع عمل العاملين منهم في هذه الدنيا ، من الرجال والنساء، وبخاصة أولئك النفر من المؤمنين المهاجرين والمقاتلين في سبيل الله .

فالثواب الذي أعده الله لهم في الآخرة هو تكفير سيئاتهم ، وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ونعم الجنة ثواباً لمن آمن وعمل صالحاً ، وكان في الدنيا من عباد الله الصالحين .

الملامح البلاغية للدعاء:

من أبرز الملامح في تلك الآيات ، عظم دلالتها البلاغية ، وقوة تأثيرها في نفوس المؤمنين يشهد لذلك الحديث المروي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن أعجب ما رآته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكت وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال : " ذريني أتعبد لربي عز وجل " فقلت : والله إني لأحب قربك وأحب هواك ، فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله : ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : " ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة (إن في خلق السموات والأرض ...) الآيات ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها " ^(١)

(١) انظر: الكشاف ٤٤٣/١ ، وتفسير ابن كثير ٤٤٠/١ ، والحديث أخرجه ابن مردويه . وانظر صحيح

ابن حبان : كتاب الرقائق : باب التوبة رقم الحديث : ٦٢٠٠ الجزء ٢ : الصفحة ٣٨٦ .

والتأمل في هذا الحديث يجد الرسول عليه الصلاة والسلام كان أول مطبق لقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿ فقد ذكر رسول الله ربه قائماً حيث جاء في الحديث : " ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته " وذكر ربه قاعداً حيث جاء في الحديث " ثم سجد فبكى حتى بل الأرض " وذكر ربه على جنبه حيث جاء في الحديث " ثم اضجع على جنبه فبكى " .

ومن الخصائص البلاغية العامة لهذه الآيات ، أنها جاءت ختاماً حسناً للسورة لأنها بدأت بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة ثم ختمت بذكر دلائل الوحدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد الموصول بهذا الدعاء الخاشع المؤثر .
والتأكيد في تلك الآيات من أوضح سماتها البلاغية ، فالآية الأولى وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ اشتملت على عدة مؤكدات :

أولها : ﴿إِنَّ﴾ التي تؤكد مضمون الخبر في النفوس .

وثانيها: تقديم ما حقه التأخير وهو ﴿فِي خَلْقِ﴾ على ﴿لَآيَاتٍ﴾ ؛ لإفادة معنى القصر المشتمل على التأكيد .

وثالثها: التعبير بالمصدر ﴿خَلَقَ﴾ دون مخلوق لأنه أدل على المعنى وأكد .

ورابعها: المقابلات اللطيفة التي من شأنها تقرير المعاني في النفوس وذلك بين ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من جهة وبين ﴿الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من جهة أخرى .
والتنكير في (آيات) للتفخيم كما وكيفاً أي: لآيات كثيرة عظيمة لا يقادر قدرها، دالة على تعاجيب شؤونه تعالى ^(١).

وجاءت الدعوة في القرآن بالتفكر في الخلق ؛ لأن في المخلوقات دلائل بينة على الخالق سبحانه وعجيب قدرته في إبداع المخلوقات ؛ ولأن التفكير في الخالق لا يصل بالإنسان إلى معرفة كنه ذاته وصفاته ، ففي الحديث الشريف : "تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ؛ فإنكم لا تقدرون الله قدره " . وقال بعض العلماء : المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس ؛ لأنه تعالى ليس كمثله شيء ^(٢).

ونبه هنا على التفكير في خلق هذه الأمور الأربعة : السموات ، والأرض ، والليل ، والنهار واختلافهما ؛ لأنها أعظم المخلوقات التي يراها الإنسان ، وقد يألفها فلا يتفكر فيها.

وقد جاءت على ترتيب بديع فأعظم الآيات خلق السموات ، ثم الأرض ، ثم اختلاف الليل والنهار .

وجعلت هذه آيات لأولي الألباب ؛ لأنهم دون غيرهم المنتفعون بالتفكر في تلك الآيات فهم المتأملون في أحوال الحقائق ، والمراقبون في أسرار الملكوت ، المتفكرون في بدائع صنائع الملك الخلاق ، المتدبرون في روائع حكمه المودعة في الأنفس والآفاق الناظرون إلى العالم بعين الاعتبار ^(٣).

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٦٢٢/١ .

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٣١٤/٤ ، وصفوة التفاسير ٧٥/٢ ، ٧٦ .

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٦٢٢/١ ، ٦٢٣ .

وفي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ﴿١١﴾ بيان لبعض صفات أولي الألباب ، ومنها أنهم يذكرون ربهم في جميع أحوالهم ، وأنهم مع ذلك يتفكرون في خلق السموات والأرض ، مثنين على ربهم ، متضرعين إليه .

ولم تعطف هذه الآية على ما قبلها ؛ لأنها بيان لبعض صفات أولي الألباب ، فالفصل بين الآيتين عند البلاغيين لشبه كمال الاتصال فكأن هذه الآية جاءت إجابة لسؤال سائل من هم أولوا الألباب ؟ فقليل الذين يذكرون الله .

وجاء بالموصول ﴿ الَّذِينَ ﴾ ؛ ليفيد العموم ، فيتناول كل إنسان اتصف بمثل تلك الصفات .

وعبر بالمضارع : ﴿ يَذْكُرُونَ ﴾ ؛ ليفيد الاستمرار والتجدد ، فهم لا يذكرون الله مرة أو مرتين ، ثم ينسون ذكر الله ، بل يذكرون الله دائماً .

وأوثر كلمة : ﴿ يَذْكُرُونَ ﴾ على " يصلون " ؛ لتتناول ذكرهم لله في الصلاة وفي غيرها .

وجاء حسن التقسيم في : ﴿ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ؛ ليشمل حالاتهم كلها ، وأنهم في كل حال من تلك الأحوال يذكرون الله .

وعطفت جملة : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ على ﴿ يَذْكُرُونَ ﴾ ^(١) ؛ للاتفاق في الخبرية بين الجملتين مع وجود التناسب بينهما ، وليبيان أن أولي الألباب

(١) انظر : تفسير أبي السعود ١/٦٢٤ .

يربطون بين ذكر الله ، والتفكر في خلق السموات والأرض " فإن من تأمل في تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتصاف خالقه تعالى بجميع ما نطقت به الرسل والكتب من الوجوب الذاتي والوحدة الذاتية ، والملك القاهر ، والقدرة التامة ، والعلم الشامل والحكمة البليغة وغير ذلك من صفات الكمال "(١) .

وقدم ذكر الله على التفكير ؛ لأنه دليل الإيمان بالله ؛ ولأنه الأصل في زيادة الإيمان بالله حين يكون متصلاً بالتفكر في خلق السموات والأرض .

وفي قولهم : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ ﴾ بيان لنتيجة تفكرهم، وثناء منهم على الله وتنزيه له تعالى من أن يكون خلق الكون عبثاً، وفيه تعريض بالكفار الذين ينكرون الدار الآخرة ، وينكرون الجنة والنار .

لذا ، كان أول مطلب لهم في دعائهم : ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ؛ لأن الوقاية من عذاب النار عنوان السعادة الأبدية .

وتقديم دعاء الثناء على دعاء الطلب ؛ لأنه أرجى في إجابة الدعاء . وقولهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِمَّنْ

أَنْصَارٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ مبالغة في طلب الوقاية من النار وبيان لسببه . وتصدير الجملة بالنداء لقصد المبالغة في التضرع والجوار . وتأكيدها ؛ لإظهار كمال اليقين بمضمونها والإيذان بشدة الخوف من النار وخزيها .

وإظهار النار في موضع إضمارها لتحويل أمرها. (٢)

(١) السابق ٦٢٥/١ .

(٢) انظر: السابق ٦٢٧/١ .

لذا جاء قولهم في هذه الآية مؤكداً — (إن) — وحرف التحقيق (قد) و﴿ مِنْ ﴾ لبيان مدى خوفهم من دخول النار ، في حين أن الكفار لا يبالون بذلك.

وفي قولهم : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ تعريض بالكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ولا بعذاب النار ، فيفسدون في الأرض دون خوف من عقاب الآخرة ، فهم الظالمون الذين لا ناصر لهم من عذاب النار . وإيثار كلمة : (الظالمين) على الكافرين ؛ لأن الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر فقد ظلم نفسه والآخرين من عباد الله بارتكاب المعاصي والإفساد في الأرض .

وبعد أن أعلن أولو الألباب إيمانهم بالله وباليوم الآخر ، رابطين ذلك بالتفكير في دلائل قدرته تعالى — أعلنوا في الآية الآتية إيمانهم برسوله داعين متضرعين قائلين : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ .

وهنا يؤكد أولو الألباب في تضرعهم إلى الله أنهم آمنوا بالمنادي إلى الإيمان وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن أمارات التأكيد حذف حرف النداء ، إذ قالوا : ﴿ رَبَّنَا ﴾ ، ولم يقولوا يا ربنا ؛ لقوة إيمانهم بالله ، مع استشعار قربهم منه تعالى ، ثم التأكيد بـ ﴿ إِنَّا ﴾ التي تدل على أنهم آمنوا بالرسول إيماناً راسخاً ، ثم تنكير ﴿ مُنَادِيًا ﴾ ؛ لبيان تعظيمه في نفوسهم ، ومن كان معظماً ، نال من الآخرين القبول والتصديق لما يقول.

وزاد النظم الكريم هنا جمالا وتأكيذاً للمعنى بالتجانس اللفظي في ﴿ مُنَادِيًا يُنَادِي ﴾ وفي ﴿ لِلْإِيْمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ ثم بتكرار النداء بهذا الاسم الجليل ﴿ رَبَّنَا ﴾ على سبيل الاستعطاف ؛ طلباً لرحمة الله ورعايته بهذا الاسم الدال على التربية والإصلاح .

وبعد إعلان إيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام طلبوا من ربهم غفران الذنوب، وتكفير السيئات : ﴿ رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ ؛ لأنهم قبل الإيمان ومع الإيمان لم يسلموا من اقتراف بعض الذنوب والسيئات . وذكروا الذنوب والسيئات ؛ لبيان مدى حرصهم عند ملاقة ربهم على سلامتهم من كبائر الآثام وصغائرها ، قال ابن عباس : " الذنوب هي الكبائر ، والسيئات هي الصغائر " ^(١) ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ ^(٢) .

وورد دعاؤهم على ترتيب بديع حيث بدؤوا بطلب غفران الذنوب وهي الكبائر من المعاصي ثم طلبوا تكفير السيئات ، وهي الصغائر ، ثم طلبوا الوفاة مع الأبرار ، وهم أفاضل الصالحين من عباد الله .

ولم ينسوا حالهم بعد الممات ، إذ قالوا داعين متضرعين :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ .

(١) السابق ٧٢/٢ .

(٢) النساء: ٣١ .

والم تأمل في دعائهم هنا يلاحظ الإيجاز ؛ لأن ما وعد الله به المؤمنين على السنة رسله ، وما سطر في كتبه المنزلة أصناف شتى من نعيم الجنة .
وجُمع الرسل مع أن المنادي هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ؛ لأن دعوته عليه السلام لا سيما في باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع منظوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم^(١) .

ثم طلبوا السلامة من الخزي في ذلك اليوم الرهيب ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فيعطى كل إنسان صحيفة أعماله ، فيرى فيها الخزي أو السعادة .
لذا قالوا ﴿ وَلَا تَحْزَنْنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ قاصدين بذلك تذكير وعده تعالى بقوله ﴿ يَوْمَ لَا تَحْزَى اللَّهُ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾^(٢) مظهرين أنهم ممن آمن معه ؛ رغبة في الانتظام في زمرة يومئذ^(٣) .

وفي ختام الآية : ﴿ إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْعِوَادَ ﴾ لطائف بلاغية منها :

- ١- تأكيد الثناء على الله بعد الدعاء .
- ٢- الفصل لشبه كمال الاتصال عند البلاغيين ؛ لأن هذه الجملة جواب عن سؤال نابع من السياق هو لماذا الله جدير بهذه المطالب ؟ فكان الجواب لأنه تعالى لا يخلف الميعاد .
- ٣- التأكيد لمعنى هذه الجملة بـ (إن) ، وبتوجيه الخطاب إلى الله عن طريق كاف الخطاب ، وبعود الضمير إلى الله مرة أخرى بعد الفعل ﴿ تَخْلَفُ ﴾ .

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٦٣٠/١ .

(٢) التحريم : ٨ .

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٦٣٠/١ .

ثم يأتي الجواب من الله السميع العليم على هذا الدعاء العظيم في قوله سبحانه :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ^ط
بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَاذْلِكُوا هَٰجِرُونَ وَأَجْرُؤُا مِّنْ دَيْرِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي
وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا تُكْفِرْنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تَدْخُلْنَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٣٥﴾ ۝

تبدأ الإجابة عن الدعاء بالفاء المؤذنة بسرعة تحقيق مطالبهم ؛ إذ قال سبحانه : ﴿ فَاسْتَجَابَ ﴾ .

وعبر بالماضي ﴿ فَاسْتَجَابَ ﴾ دون "يستجيب" ؛ لإبراز ما سيتحقق في صورة المتحقق ، فإن ما وعد الله به سيتحقق لا محالة ، فكأنه متحقق فعلا .
فالتعبير بالماضي بدلا من المضارع صورة من صور التأكيد في الخبر القرآني عما سيحدث بعد الممات .

والسين التي لحقت بالفعل مؤكدة للمعنى أيضاً ؛ إذ الأصل " أجاب " .
وإيثار ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ على أن يقال " فاستجبت لكم " ؛ إشارة إلى أن ذلك متقرر في علم الله وتقديره الأزلي .

ثم أكد سبحانه أنه لا يضيع عمل العاملين لا في الزمن الماضي ولا في الحال ولا في المستقبل ، بدلالة ﴿ أَنِّي ﴾ المؤكدة ، وبصيغة المضارع في ﴿ لَا أُضِيعُ ﴾ .

والتجانس اللفظي في ﴿عَمَلٌ عَمِلَ﴾ ، وصحة المقابلة بين الذكر والأنثى في ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ زاد الخير تأكيداً ، وأضفى على الأسلوب جمالا .

وقوله سبحانه : ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ له دلالات بلاغية يحتملها السياق منها : وهو أظهرها أن الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، فإذا كنتم مشتركين في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الأجر^(١) . أو كما يرى الطبري بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين^(٢) .

ولما كان المؤمنون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كثير من العصور يتعرضون لأصناف من الأذى - خص بالذكر المهاجرين والمخرجين من ديارهم ، والمتعرضين للأذى في دينهم ، المتمسكين به لا يصددهم عنه صاد ، والمقاتلين في سبيل الله والشهداء منهم - خصهم بالذكر ؛ إشادة بهم ، وتنوياً بجلال أعمالهم فقال سبحانه : ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ثم بين تعالى ثوابهم العظيم وهو دخولهم الجنة التي فيها يتحقق فوزهم الكبير وسعادتهم الأبدية .

وقد ورد ذكر هؤلاء الموعودين بدخول الجنة على حسب الترتيبي ، فبدئ بالذين هاجروا ، ثم بمن هو أشد حالة منهم ، وهم الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً ، ثم بمن هم أعظم تحملاً ومجاهدة في سبيل الله ، وهم الذين قاتلوا واستشهدوا في سبيل الله .

(١) انظر: الكشف ٤٤٦/١ ، وتفسير الجلالين ٦٧ . دار التراث القاهرة .

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٤٧٨/٢ . تهذيب صلاح الخالدي . دار القلم . دمشق .

وتحديد الثواب بـ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تعظيم له وتفخيم ، فما كان من عند العظيم ، وهو الله رب العالمين ، فهو بالغ العظمة ، كثير مبارك فيه .
وفي ختام الآية بقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ لطائف بلاغية منها:

- ١- التأكيد أن الله وحده عنده الثواب الحسن عن طريق التصريح بكلمة ﴿وَاللَّهُ﴾ دون ضميره ، ثم ذكر ﴿عِنْدَهُ﴾ .
- ٢- التناسب البديع بين مضمون الآية وختامها ؛ ففي هذا الختام تقرير لمعنى الآية في النفس .
- ٣- الكناية عن الجنة بحسن الثواب ؛ لأن الثواب على الأعمال الصالحة هو الذي يكون سبباً في دخول الجنة .

الخاتمة:

بعد هذه الوقفات مع الدعاء في سورة آل عمران يتضح أمران في بلاغتها :
الأول : أنها جاءت متضمنة نوعي الدعاء : وهما دعاء الطلب ، ودعاء
الثناء .

والثاني : أنها جاءت متلائمة مع موضوعات السورة وأهدافها ، وأنها تشع
في كلماتها وتراكيبها بأسرار بلاغية عظيمة لا يهتدي إليها إلا المتدبرون من
المؤمنين والراسخين في العلم منهم .

ومع هذا فإن التأمل في تلك الأدعية التي وردت في السورة يجد فيها من
المعاني البلاغية العامة أنها تشتمل على ما يحقق السعادة في الدنيا والآخرة .

فدعاء المؤمنين والراسخين في العلم منهم يهدف إلى تثبيت الإيمان في قلوبهم
وإفاضة الرحمة عليهم لأنهم قالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ
لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

ودعاء الصابرين والصادقين حين قالوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ يهدف إلى تحقيق الأمن لهم في الآخرة بستر ذنوبهم
ووقايتهم من النار .

ودعاء الثناء في قوله تعالى: ﴿ اَللّٰهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ
وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يهدف إلى الأمن في المعتقد وسلامته ، ورد الأمور
صغيرها وكبيرها إلى الله تعالى .

ودعاء امرأة عمران في قولها : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ يعطي صورة رائعة لتقوى هذه المرأة وإخلاصها في عبادتها لربها ، ويبين مدى حرصها على صلاح ابنتها وذريتها من بعدها إذ قالت : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

ودعاء زكريا عليه السلام يعطي صورة رائعة أخرى لتقوى هذا الرجل وإخلاصه في عبادته لربه ، ويبين مدى حرصه على أن يهبه ذرية طيبة تنشر الخير والصلاح في المجتمع ، وفي الوقت نفسه يبين أن الله قادر على إجابة دعوة المخلصين من عباده المؤمنين ولو فقدت الأسباب الظاهرة التي تؤدي إلى تحقيق المطلوب .

ودعاء مريم يبين أن الأمور بيد الله ، فمتى أراد تعالى شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

ودعاء الخواريين يعطي صورة رائعة لتقوى الجماعة المؤمنة ، وهي التي تؤمن بما أنزل الله ، وتتبع الرسول فيتحقق لها الفوز في الدنيا والآخرة .

ودعاء الربيين وهم العلماء ، والصلحاء والأتقياء العابدون يبين أن المؤمنين الصادقين يكونون على صلة دائمة برهم في السلم والحرب وفي السراء والضراء ، فلا وهن لما أصابهم ولا استكانة ولا ضعف ، بل صلة دائمة قوية برهم داعين قائلين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

ودعاء أولي الألباب يعطي صورة رائعة للمؤمنين ذوي العقول النيرة ، وهم يتفكرون في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار داعين ربهم إلى ما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة قائلين : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ﴿١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۚ ﴿١٢﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٣﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ﴿١٤﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٥﴾ آمين ، آمين ، آمين .

هذا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرس مصادر البحث:

- ١- أيسر التفاسير لكلام الله العلي الكبير . تأليف أبي بكر جابر الجزائري . ط٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- ٢- بدائع الفوائد . تأليف: ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت .
- ٣- تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . تأليف قاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي الحنفي . ت عبد القادر أحمد عطا . مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .
- ٤- تفسير ابن جرير . تهذيب صلاح الخالدي . دار القلم . دمشق .
- ٥- تفسير الجلالين . دار التراث القاهرة .
- ٦- تفسير الرازي دار الكتب العلمية . طهران . ط٢ .
- ٧- تفسير القرآن العظيم لابن كثير . دار المعرفة . بيروت . لبنان . ط١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ٨- تفسير القرطبي . صحيح هشام سمر البخاري . دار إحياء التراث العربي ، بيروت
- ٩- تفسير التحرير والتنوير . تأليف سماحة الأستاذ العلامة الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور . الدار التونسية للنشر ط ١٩٨٤م .
- ١٠- رياض الصالحين . تأليف :الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي مؤسسة الرسالة . ط١٠ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .
- ١١- الجامع الصحيح . سنن الترمذي . تأليف : محمد بن عيسى الترمذي السلمي .
- ١٢- سنن الدارمي . تأليف : عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي .
- ١٣- شعب الإيمان . تأليف : أحمد بن الحسين البيهقي .

- ١٤- صحيح ابن حبان . تأليف : محمد بن حبان التميمي البستي .
- ١٥- صحيح البخاري : الجامع الصحيح المختصر . تأليف : محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي .
- ١٦- صحيح مسلم . تأليف : مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري .
- ١٧- صفوة التفاسير . تأليف : محمد بن علي الصابوني . دار القرآن الكريم . بيروت . ط (١) ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ١٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . تأليف محمد ابن علي الشوكاني . دار الفكر . ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ١٩- فقه السنة . دار الكتاب العربي . بيروت .
- ٢٠- في ظلال القرآن . تأليف : سيد قطب . دار الشروق . بيروت . ط (١٠) ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- ٢١- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف : الإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري . ترتيب وضبط وتصحيح محمد عبد السلام شاهين . دار الكتب العلمية . بيروت . ط (١) ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .
- ٢٢- مختصر تفسير ابن كثير . تأليف : محمد بن علي الصابوني .
- ٢٣- مستدرک الحاكم : المستدرک علی الصحیحین . تأليف : محمد بن عبد الله النيسابوري
- ٢٤- المعجم الصغير . تأليف : سليمان بن أحمد الطبراني .
- ٢٥- المعجم الكبير . تأليف : سليمان بن أحمد الطبراني .